سيتمكّن من الوصول إلى الرأي، إلى الحقيقة

لطالما احببت التأمل في الكيان البشري، هذا الكيان الغامض الذي كلما غصت في اعماقه تكشفت اسرار ما عرفتها قبل الآن. في كل رحلة غوص في هذه الاعماق السحيقة الابعاد وجدت معاني جديدة وحقائق ما عرفتها قبلا.

وفي آخر تأمل لي كان التعرف الى ابعاد الانسان، تعددها وتباينها. هذه الابعاد هي تلك المنافذ التي يطل من خلالها الانسان على العالم الخارجي، بغية الاتصال بما هو خارج عن كيانه، لاكتساب الجديد.

رحت اتأمل في هذه المنافذ التي تصل الانسان الداخلي بالعالم الخارجي... ولشدة دهشتي رأيتها تتباين فيما بينها، ويختلف بعضها عن البعض الآخر. فكل بعد يقدم شيئا مغايرا عما يقدمه البعد الآخر للانسان ووعيه. لكني لم اعرف سبب هذا التباين الظاهري، حتى توصلت اليوم الى حقيقة الامر حين نظرت الى الاشياء من بعيد، من خارج نطاقها المادي، ففهمت كل الاسباب.

قبل التكلم عن اكتشافي هذا، اعرفكم اولا الى ما اكتشفته في الانسان من اختلاف الابعاد.

في الانسان منافذ يطل عبرها على العالم الخارجي. هناك الحواس الخمس، عالم المشاعر، عالم الافكار، وعالم الادراك (الوعي)، فالانسان يستطيع التعرف الى شيء ما عن طريق الحواس او المشاعر او الافكار او الادراك.

لكن الغريب في الامر ان الرسائل التي تؤديها هذه المنافذ الى الانسان تختلف وتتباين. فرسالة الحواس تختلف عن رسالة المشاعر. البصر مثلا ينقل شكل الشيء، والسمع صوته، بينما المشاعر تنقل احساس الشخص تجاه ذلك الشيء... تخبره افكاره حقيقة الشيء مقارنة بتجربة سابقة في هذا الصدد بينما ادراكه يجمع كل هذا بلحظة عابرة وينقل الرسالة الى وعي الانسان عن طبيعة ذلك الشيء.

ويبقى السؤال: لم الاختلاف في نقل الرسائل احيانا؟ فلطالما اخطأ البصر، او السمع في ايصال احدى الرسائل، ولطالما اختلف الذوق مع الشم في نقل رسالته! الا تلاحظون ان رائحة شيء ما تختلف كل الاختلاف عن مذاقه؟! الا تلاحظون ايضا انكم قد تعجبون لشكل شيء ما، ولا تكادون تقتربون منه حتى ينتابكم شعور غريب برغبة في الابتعاد... وهو احساس ينافي شعوركم الاول؟ او تكوّنون فكرة عن شيء ما حين ترونه من البعيد، وحالما تلمسونه، او تعون حقيقته تجدون ان تلك الفكرة التي تكونت عنه سابقا كانت خاطئة!

ثم، ليتأمل المرء في افكاره، الا يجدها تختلف عن مشاعره؟ كم من مرة اتخذ المرء قرارا وغيّره لاحقا، بعد ان تدخلت عواطفه ومنعته من المضي فيه.

او كم من مرة اسلم الشخص نفسه الى هوى عواطفه وما لبثت افكاره ان تدخلت وحسمت الامر.

لم هذا التباين في الاستيعاب؟ لم الاختلاف في نقل تلك الرسائل وفهمها؟

هذا ما لم ادركه الا حديثا، حين ارتفعت فوق كل تلك الابعاد، اي فوق معانيها، مغازيها، واهدافها... فرأيت الصورة واضحة. ادركت ان الاختلاف يولد الانسجام، وان الكثرة تؤدي الى الوحدة. فمن خلال هذا الاختلاف الذي يعيشه المرء كل يوم وكل لحظة، ينشأ نوع من التناغم الذاتي بين جميع هذه الابعاد. لكننا لا نعيه. والامر يدعو في النهاية الى تكامل هذا الكيان البشري. والهدف الابعد هو ايصاله الى الانسجام الداخلي، ومن ثم الى الوحدة في نفسه.

ومن البديهي القول ان الانسان ما لم يع الكثرة او الاختلاف، لن يعي الوحدة او الانسجام او من خلال هذا التباين سيبحث الانسان عن الانسب والافضل، سيتعلم كيف يفكر، كيف يمرن حواسه على استيعاب الحقيقة دون اللجوء الى الاجراء نفسه في كل مرة. وسيتعلم ان يضع نفسه في وسط كل هذه الاراء المختلفة ليفكر في النتيجة الحقيقية، وفي افضل استنتاج لاتخاذه واعتماده.

كل هذا سيؤدي به الى التمييز، الى الانسجام، ومن ثم الى الوحدة، بشرط ان يعرف المرء كيف يناغم ويوحد بين مكوناته الباطنية. فمهمة الانسان ان يحاول التوفيق والتقريب بين جميع هذه الاراء، ويبحث عن القاسم المشترك يبحث عن النواقص في كل منها ليكملها بعضها ببعض.

بعد هذا التناغم والانسجام في جميع مكونات الانسان الباطنية، سيتمكن من الوصول الى الرأي الصحيح، والى الحقيقة القابعة وراء كل الاشياء. لأن الحقيقة تقبع في الوحدة، عن طريق التناغم والانسجام. اما الاراء المختلفة او الابعاد المتباينة، ان بقيت على حالها فإنها لا تؤدي الا الى الضياع والصراع الداخلي.

واجب الانسان الواعي ان يتغلب على هذا الصراع الداخلي ليصل الى السلام الداخلي، في كنف السكينة الروحية.

اسعد سيف

الشرق - ٩٢/٨/١٣